الغلو في الخلاف الفرعي وأثره في التخلف الحضاري

د. أحمد بوسجادة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة .

تمهيد:

منذ زمن بعيد وأنا منشغل بحال أمة قادت البشرية في أبهى عصورها الذهبية، ثم حافت عليها الليالي، فوقعت على رأسها من قمة الهرم إلى الحضيض، تتخبط في الأوحال، في ذيل قائمة الأمم المتخلفة.

منذ زمن بعيد وأنا أسلي النفس المتعبة الجزعة، بالظفر بجواب شاف لسؤال الدهر – دوما – أين المسلمون؟ لماذا الخلف بينهم؟ ما الذي صيرهم أبعاضا متنافرة، متنازعة، متباغضة؟ وهم الذين استحقوا –من قبل – امتداح ربهم (كنتم خير امة أخرجت للناس)[1] (رحماء بينهم) [2].

اعتقدت في البداية أن سبب الإعاقة خارجي، بدءا بالاستعمار، وانتهاء بالغزو الفكري ؛ فأنفقت شطرا عزيزا من العمر أدرس هذا المعوق الخارجي.. كتبت عنه –بعد أن خبرته– عشرات المقالات، ونشرت وألقيت عشرات المحاضرات والبحوث في مناسبات شتى. وبعد جهد مضن تحت أكداس الإيديولوحيا، ومطارح الأفكار، والمذاهب، والعقائد؛ تبين لي أن العامل الخارجي ما هو إلا محصلة مترتبة على العامل الداخلي، بالضرورة المنطقية، والنواميس الطبيعية.

فالشجرة المجوفة التي نخرها السوس والدود والنمل من الداخل، حين تتهاوى ؛ نكون مجانين إن نسبنا هويها إلى نسائم الربيع المنعشة.

وهذه هي السنة السوسيولوجية والقانون العمراني الذي أشار إليه القرآن الكريم (قل هو من عند أنفسكم)[3] (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)[4] وهذا ما أسماه الكاتب والمفكر مالك بن نبي (القابلية للاستعمار) وفي هذا المعنى كتب الدكتور محمد محمد حسين كتابه القيم " حصوننا مهددة من داخلها" إنه الغلو في الاختلافات الفرعية وما يترتب عليها من تنازع داخلي مذموم، يفضي إلى الهزيمة، ويستدعي الاستعمار... فما ضاعت الأندلس إلا بعد أن دب الخلاف المحموم، والتفرق المذموم بين ملوك الطوائف من قبل، وبين ملوك بني الأحمر من بعد، وما وقعت بلاد المسلمين تحت وطأة الاستعمار الغربي إلا بعد أن أحال النخر الداخلي الدولة العثمانية إلى (رجل مريض) ينبغي أن تقسم تركته بين ورثة غير شرعيين، وما سقطت القدس وبلاد الشام إلا بعد أن اشتد الخلاف بين حكام المناطق والأقاليم، وما استولى

---

1 – سورة آل عمران: 110.

2 – سورة الفتح: 29.

3 – سورة آل عمران:165.

4 – سورة الأنفال: 46.

القياصرة والبلاشفة على أرض المسلمين في بلاد التركستان والجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي- سابقا- إلا بعد أن احتد الخلاف بين الإخوة الأربعة: حكام قازان.

وبهذا الخلاف انطوى مجد الخلافة الأموية، وأفل نجم الخلافة العباسية. ومن بعد هما دولة المرابطين، والموحدين، والدولة الأيوبية، والسلجوقية.. كل هذه الهزائم الشائنة ألحقناها بأنفسنا، بسبب خلافات تافهة – في الغالب – لا تجدد الدين ولا تنهض بالدنيا.

وحيال ماض انطوى، ومجد انثوى، وواقع انجلى ؛ نحاول أن نجلي الإشكالية التالية:

هل ما حدث ويحدث للأمة من تمزق هو بسبب الخلاف؟ كيف؟ كيف يستقيم ذلك، وفي الاعتبار أن الاختلاف ضرورة شرعية، وسوسسيولوجية، وخلقية،،، من أيام قابيل وهابيل؟

أم هناك اختلاف واختلاف؟ أم أن هناك ضوابط وآدابا ينبغي مراعتها حتى يتحول الاختلاف من المذموم إلى المحمود، ومن التضاد إلى المغايرة، ومن النقمة إلى الرحمة، ومن الضعف إلى القوة؟

***مشروعية الاختلاف*:**

إن الكثيرين من العاملين في المجال الإصلاحي والدعوي لا يعرفون أن الاختلاف ضرورة شرعية، اقتضتها طبيعية النصوص الشرعية وما بها من مرونة وقابلية للتأويل، والحمل على أكثر من وجه وطبيعة الناس من حيث الملكات العقلية، والقدرة على الفهم والاستنباط[1]، والنظر بين الناس فيما للعقل فيه مجال: (الظنيات، وما لا نص فيه).

لقد وقع الاختلاف بين الملائكة[2]، مصداقا لقوله تعالى: {مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ}[3]، وصح في الحديث اختلاف ملائكة الرحمة وملائكة العذاب في مصير الذي قتل مائة نفس ثم خرج تائباً.

. وقد ثبت الاختلاف بين الأنبياء أيضاً، مثل: الذي كان بين موسى وهارون . عليهما السلام . حول ما ابتدعه بنو إسرائيل في غياب نبيّهم موسى[4]، واختلف داود وابنه سليمان . عليهما السلام . حول حكم الغنم إذا نفشت في زرع القوم[5]، واختلف موسى والخضر عليهما السلام، حول نقاط ثلاث مشهورة[6]، وتحاج موسى وآدم –عليهما السلام–

واختلف أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في حياته ولم ينكر عليهم ذلك، بل أحيانا يقر هذا وذاك على الصواب، مثل إقراره لصلاة الفريقين في بني قريظة، وإقراره لصلاة الصحابيين اللذين كانا على سفر، حيث أعاد أحدهما بعد أن وجد الماء في الوقت ولم يعد الآخر.

([1]) د. طه جابر العلواني، **أدب الاختلاف في الإسلام**، ص 103- 113.

([2]) د. يوسف القرضاوي، **الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم**، ص 89- 90.

([3]) سورة يوسف، الآية: 69.

([4]) الآيات من 89- 92 من سورة طه.

([5]) الآيات من 77- 78 من سورة الأنبياء.

([6]) الآيات من 64- 84 من سورة الكهف.

كما اختلفوا حول أسرى بدر، ومصالحة غطفان في غزوة الخندق، وفي حادثة الإفك، وفي صلح الحديبية، وفي الخروج وعدمه لملاقاة المشركين في غزوة أحد، وفي التزام الرماة بالبقاء في مواقعهم والمشاركة في جمع الغنائم، وفي رفع الحدث الأكبر بالتيمم، وقراءة البسملة، وحول تقسيم الغنائم بين المهاجرين والأنصار...

كما اختلفوا بعد مماته حول قضايا كثيرة، منها: اختلافهم حول دفنه . صلى الله عليه وسلم . وموته، وأرض فدك، وإنفاذ جيش أسامة بن زيد وتأميره على الجيش، وجمع القرآ ن، وقتال المرتدين ومانعي الزكاة، وسهم المؤلفة قلوبهم، وتولي الخلافة، ومراعاة السبق في الإسلام في توزيع العطايا، وتقسيم أرض السواد، كما اختلفوا حول العدة، والإيلاء، والنفقة والسكنى للبائن، وميراث الجد مع الإخوة، وميراث الجدة،،، ومئات القضايا حول فهم الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية.

أما اختلاف التابعين والعلماء والفقهاء ؛ فلا يمكن حصره، إذ يتسع شرحه وتفصيله لعشرات المجلدات، ورغم ذلك فقد استحقت هذه الأمة امتداح الله سبحانه وتعالى، إذ وصفها بصفتين محمودتين كريمتين: الخيرية والرحمة (**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**) [1] (رحماء بينهم) [2]

. بل نجد أن العليم الحكيم قد بين أن الاختلاف سنة ماضية في خلقه، قال تعالى: (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولـذلك خلقهم " [3]

إن الرسول –صلى الله عليه وسلم– اعتبر اختلاف أمته رحمة، ومن هذا المفهوم وذاك استقى عمر بن عبد العزيز قولته المشهورة: "ما أحب أن أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– لم يختلفوا لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق، وأنهم أئمة يقتدي بهم، فلو أخذ رجل بقول هذا ورجل بقول هذا، كان في الأمر سعة"[4]

وقال القاسم: "لقد نفع الله باختلاف أصحاب النبي . صلى الله عليه وسلم . لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه في سعة" [5] وقال: لقد وسع الله على الناس باختلاف أصحاب محمد . صلى الله عليه وسلم . أي ذلك أخذت أخذت به لم يكن في نفسك منه شيء" [6]".

وعلى هذا النحو فهم علماؤنا، وأئمتنا الاختلاف بين العلماء، فكان الاختلاف تنوعاً ورحمة، وأمضت المذاهب الفقهية أمسها في وئام وتعاضد، وكانت على ذلك حتى ظهر ناس من الدخلاء على العلم والفقه، لا يعرفون إلاّ رأياً واحداً ووجهة نظر واحدة، صائبة أو خاطئة، ثم يقولون هذا هو الدين ولا دين سواه، ويعتبرون كل مخالف خصما !!، همهم التنقيب عن مواطن الخلاف المذموم لإحيائها وإشاعتها وضرب الطبل عليها، والتشهير بأصحابها.

---

1 –سورة آل عمران: 110

([2])سورة الفتح: 29.

([3]) هود:119

4 –جامع بيان العلم وفضله ، ابن عبدا لبر ، دار الكتب الإسلامية ، ط 2 ، 1982، ص:353

([5]) الاعتصام، الشاطبي، المكتبة التوفيقية، ج 2، ص500

([6]) جامع بيات العلم وفضله، ابن عبد البر، ص 392

ليست المشكلة في الاختلاف في حد ذاته، وإنما المشكلة في الفهوم القاصرة للاختلاف وما يترتب عليها، إذ حولته من الرحمة إلى النقمة، ومن التنوع إلى التضاد، ومن الائتلاف إلى التمزق، ومن الانفتاح إلى الانكفاء، ومن الإعذار إلى الإنكار، ومن التعدد إلى التعصب، ومن القوة إلى الضعف، ومن الجدل بالتي هي أحسن إلى الجدل بالتي هي أخشن، ومن رحاب المباح إلى دروب الحرام، ومن الوحدة إلى الوحدة . بكسر الواو...

أثر الاختلاف المذموم في الانهيار الحضاري للأمة

يذم الاختلاف بأحد أمرين:

الأول: إذا كان حول المحكم "القطعي " وهذا هو معنى القاعدة الأصولية التى تقول: لا اجتهاد مع النص، ومن ثمة لا اختلاف حوله.

الثاني: إذا خرج عن ضوابط وآداب الاختلاف، حيث إن للاختلاف موسوعة من الآداب السامية، لا يكون العالم عالما إلا إذا فقهها وحذقها، وقد أسهب حولها علماؤنا الحديث، إلى درجة أنهم أفردوا لها علما كاملا مستقلا بها، يسمى (آداب البحث والمناظرة) وما تنكبت الأجيال اللاحقة، وتكاثرت عثراتها، ونكباتها إلا بعد أن هجر أبناؤها هذا العلم وهذه الآداب السامية.

لقد ورث جيل "خير القرون" العلم معطرا بالأدب القرآني والأدب النبوي، فكان بحق خير أمة أخرجت للناس، وظلت الأمة على ذلك الشموخ، حتى منتصف القرن الرابع الهجري، حيث بدأت حوادث الليل والنهار تنقص من أطرافها، حتى أوردتها موارد البوار، وجرعتها كؤوس الخزي والخذلان، فأغلق باب الاجتهاد، وفشا التعصب المذموم للمذاهب والأشخاص، وتصدر كثير من المتعالمين والمتفيهقين حلق العلم، ومناصب الإفتاء، فنجم عن ذلك شر مستطير، أصاب الأمة في مقاتلها يوم أن صارت عدوة لنفسها، أي أن الفتنة والتنازع باتا ينخران الأمة من داخلها وليس بأيدي أعدائها، وهذا ما حذر منه القرآن أشد الحذر، قال تعالى: " ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " [1].

خاصة إذا كان التنازع بين العلماء والفقهاء، يقول عبد الله بن المبارك: ياعلماء البلد أنتم ملح البلد فمن يصلح الملح إذا فسد؟

ولعل كثيرا من علماء اليوم الذين يسهمون في إلهاب نار فتنة الاختلاف المذموم هم على شاكلة من قال عنهم بشر بن الحارث: "كيف يدعي هؤلاء العلم وهم يتغايرون على الدنيا، ويتحاسدون عليها...ويحكم ياعلماء..، أنتم ورثة الأنبياء، وإنما ورثوكم العلم فحملتموه وزغتم عن العمل به، وجعلتم علمكم حرفة تكسبون بها معاشكم، أفلا تخافون أن تكونوا أول من تسعربه النارا" [2]

وقال في موضع آخر:" وقد صار العلم إلى قوم يأكلون به " [3]

([1]) الأ نفال:46

([2])العارف بالله بشر بن الحارث الحافي، د. عبدالحليم محمود، منشورات المكتبة العصرية، صيدا . بيروت، ص 48

([3]) المرجع نفسه، 49

إذا كان هذا الصنف موجودا في زمن بشر بن الحارث، فماذا نقول نحن اليوم، وقد طال بنا الأمد، وباعدت الدهور بيننا وبين السلف الصالح؟

انظر إلى حال الأمة كيف يفسد حالها تماما حينما يفسد علماؤها، وانظر كيف يتداعى عليها الخراب، ويسارع إليها المحق والانهيار.

ففي طور الانحطاط سئل فقيه شافعي عن الطعام وقعت فيه قطرة نبيذ، فأفتى أنه يُرمى إلى كلب أو حنفي، واستفتي فقيه حنفي في زواج حنفي من شافعية، فقال يجوز، ولكن ليس على أنها مؤمنة، ولكن بقياسها على الكتابية التي تجوز للمسلم باتفاق[1].

في دور الجمود والضعف بسط الحنابلة أيديهم على أصحاب الشافعي حتى لا يمكنوهم من الجهر بالقنوت، ولما زالت شوكة الحنابلة استطال أصحاب الشافعي على الحنابلة استطالة السلاطين المستبدين، وآذوا الفقهاء والعوام متهمين إياهم بالتجسيم !!.

إن أبا نصر الواعظ بالنظامية، كان يذم الحنابلة ويتهمهم بالتجسيم، فرموه يوماً بالحجارة، وتقاتل الشافعية والحنابلة بسببه، ووقع بينهم قتلى وجرحى وحرق ونهب.

إنه في الوقت الذي كانت فيه الأمة تتفتت من الداخل، وتتحلب فيه أنياب القوى الخارجية استعدادا للانقضاض عليها، كان صنف من علماء المسلمين منشغلا بقضايا فرعية، ومن أمثلة ذلك:

. قال حنفي في ماء البئر النجس الذي عجن بمائه.. يلقى العجين للكلاب، أو يعلف للماشية، أو يباع لشافعي[2].!!

. وقال القاضي الحنفي: لو كان لي أمر لأخذت الجزية من الشافعية [3].!!

. وقال ابن إدريس: إني لأشتهي من الدنيا: أن يخرج من الكوفة قول أبي حنيفة، وشرب المسكر، وقراءة حمزة[4]..!!

. وقال يزيد ابن هارون: ما رأيت قوما أشبه بالنصارى من أصحاب أبي حنيفة [5].!!

. وقال آخر من لم يكن حنبليا فليس بمسلم !!

. ونسب يوسف ابن أسباط إلى أبي حنيفة قوله: لو أدركني رسول الله صلى الله علبه وسلم وأدركته لأخذ بكثير من قولي[6]!!..

([1]) د. حسان حتحوت، **بهذا ألقى الله، مؤسسة فهد المرزوق الصحفية للطباعة والنشر، ص31**

([2]) الاختلاف الفقهي: أسبابه ومذاهبه، د. الصديق بشير بن نصر، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا. طرابلس، 2008، ص 96

([3]) المرج نفسه

([4]) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ج13، ص 410

([5]) المرجع نفسه. ص 382

([6]) المرجع نفسه. ص 405

إذ ذاك كان الصليبيون يرقبون الأحداث عن كثب، ويعدون العدة للإجهاز على بيت المقدس!!.

حتى لما أحاطت بهم خطيآتهم، ووقفت بساحتهم المنايا، وجاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر، وبات الصليبيون على مشارف إنطاكية ظل الصراع محتدماً بين الملكين الأخوين: رضوان ملك حلب، ودقّاق ملك دمشق، بسبب أن ملك حلب طمع في دمشق ليضمها إليه، لقد وقف الأخوان يتفرجان على حلب وهي تقاوم وحدها الغزاة الصليبيين، حتى سقط الكل بما في ذلك بيت المقدس، فاكتسح الصليبيون الحضارة الإسلامية واستباحوا ديار الإسلام[1].!!

وبنفس السيناريو الدرامي سقطت إيشبيلية، وغرناطة...حيث ورث خلافة بني أمية في الأندلس أكثر من عشرين حاكما من ملوك الطوائف، موزعين على أكثر من عشرين مدينة، مزقتهم خلافاتهم وعصبياتهم الموزعة بين العرب والبربر والصقالبة، لقد "انشغلوا بحروبهم الداخلية، وباستعداء النصارى ضد بعضهم البعض، وتسابقوا إلى كسب النصارى، وامتهنوا في ذلك كرامتهم وكرامة الإسلام، فدفعوا الجزية وتنازلوا طوعا عن بعض مدنهم للنصارى، وحاربوا في جيوش النصارى ضد المسلمين من إخوانهم في المدن الأخرى من أرض الأندلس الإسلامية " [2]

وإلى وقت قريب مع الهجمة الاستعمارية الحديثة على العالم الإسلامي، كان كثير من المساجد قد تعددت فيها المحاريب، مثل: الأزهر الشريف، والمسجد الأموي ومسجد الشيخ محيي الدين بن عربي بدمشق، وكل جماعة تصلي على مذهب إمامها، بل حتى في أثناء اشتباك الأمة مع الاستعمار، اشتباك حياة أو موت، رأينا فريقا من العلماء يفضل معركة أخرى بين الإخوة، ويرى أنها ذات أولوية أحق بها من المستعمر، فبعيد الوقت القريب الذي احتفلت فيه فرنسا بمرور مائة عام على احتلال الجزائر، وما صحب ذلك من غمز ولمز في كرامة الجزائريين، نجد فيه حرب السباب والشتائم المقذعة بين جريدة المعيار التي كان يصدرها الصوفية، وبين جريدة الجحيم التي كانت تصدرها جمعية العلماء المسلمين. وسوف أقدم هنا نموذجا واحدا، على مدى الانحدار الذي انزلقت إليه الجريدتان في ساعة العسرة، وهما تريان أن ذلك من جهاد الدعوة، جاء في شعار جريدة المعيار (إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) وتقصد بالفجار جمعية العلماء، ومما جاء في عددها الأول " لأن عقارب السوء لا تكف عن البداية بالعدوان إلا بإكرامها بين النعل والثرى، وأن هؤلاء الأوباش لا يرجعون..إلا عندما يعرفون أن الأمة تنبهت إلى مساويهم وأنهم أصبحوا في نظرها بؤرة كل فساد ومصدر كل فتنة " [3]. وترد عليها جريدة الجحيم " وقد ظهر في هذه الأيام رهط ينتسبون إلى الجنس البشري وهو يتبرأ منهم، هؤلاء الخنازير اتخذوا الشتم وثلب الأعراض حرفة، وقذف أهل العلم.. "[4].

ونحن نتساءل هنا، هل هذا هو فقه الأولويات الذي علمنا إياه العليم الحكيم ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .؟ لا شك أن المستفيد هنا وهناك هو الاستعمار والتخلف معا.

([1]) د. طه جابر العلواني، **أدب الاختلاف في الإسلام**، ص 147.

([2])أوراق ذابلة من حضارتنا، د. أحمد عويس،مؤسسة عبد الحكيم لعرابة للنشر والتوزيع،ط 2،ص 30 . 31

([3])جريدة المعيار، ع: 1، 1932/11/18

([4]) جريدة الجحيم، ع: 1، 1933/01/30

وفي هذا المجال يقول محمد عبده: (وقد خالفنا النصوص فتفرقنا وتنازعنا وشاق بعضنا بعضا بشبهة الدين، إذ اتخذنا مذاهب، كل فريق يتعصب لمذهب ويعادي سائر إخوانه المسلمين لأجله، زاعما أنه ينصر الدين وهو يخذله بتفريق كلمة المسلمين، هذا سني يقا تل شيعيا، وهذا شيعي ينازل إباضيا، وهذا شافعي يغري التتار بالحنفية، وهذا حنفي يقيس الشافعية على الذمية، وهؤلاء مقلدة الخلف يحادون من اتبع طريقة السلف " [1].

إن الانشغال بصغائر الأمور لا يدفع أبداً نزول عظائم الخطوب. إن الجيوش الإسلامية لم تتمكن من فتح القسطنطينية إلاّ بعد أن انتشر النقاش البيزنطي، لقد كانوا منشغلين بقضية أيهما أسبق البيضة أو الدجاجة؟ وموعد الساعة..، ولم يلبثوا حتى فاجأهم محمد الفاتح، ودكّ عليهم أسوار القسطنطينية.

وظل حكّام مصر منشغلين بعبارة من (نابليون) الواردة في رسالته، هل هي ممنوعة من الصرف أو لا؟ حتى باغتهم بحملته المشهورة.

أثر الاختلاف المذموم في التعويق الحضاري في ظل العولمة.

سبحان مغير الأحوال من حال إلى حال، كيف أن التارخ يعيد نفسه، وكيف أن لله سننا لا تحابي ولا تجامل، حتى وإن كانت الضحية هي خير أمة أخرجت للناس، فالأمة لما أعرضت عن ذكر ربها، وذهلت عن دينه، وبات بأسها بينها شديدا، صارت إلى مصائر الذين تشبثوا بالقشة، وتركوا قارب النجاة حين الغرق، فأحاط بهم الموت من كل مكان.

إن العالم اليوم . في ظل العولمة . يتوحد ويتكتل وإن تباعدت أقطاره، وتباينت عقائده ونحله، فهذا تكتل اقتصادي حضاري يسمى نافتا، يضم كلا من: أمريكا وكندا والمكسيك، وذاك تكتل آ خر يضم مجموعة السوق الأوربية المشتركة،، تتحد فيه ما يقارب ثلاثين دوتة، يوحد العملة ويلغي التأشيرة، ويلغي الحدود الجغرافية، وذلك تكتل آخر يضم الدول الآسيوية يسمى يافتا بقيادة يابانية صينية، بعد أن دفن القوم أحقادهم التاريخية، وتناسوها، وهذه ألمانيا توحدت، وتلك هونج كونج تعود إلى الصين، وتلك جمهوريات البلطيق تعود إلى الحظيرة الأوربية، وأوربا الشرقية تنضم إلى السوق الأوربية المشتركة، وتنخرط في حلف الناتو، وذلك تكتل سياسي اقتصادي يضم روسيا والصين والهند.

يرى الدكتور مهدي المنجرة أن أي تكتل يقل عدد سكانه عن 150 مليون نسمة سوف يتفكك مع نهاية القرن الواحد والعشرين

أما مسلمو اليوم فقد وقفوا يتفرجون على المشهد، الذي يزداد تفاقما يوما بعد آخر، وكأن الأمر لا يعنيهم.

فقد اقتطع الاتحاد السوفييتي أرض التركستان والجمهوريات الإسلامية، واقتطعت الصين تركستان الشرقية " سينكيانج "، واقتطع الأنجليز من اندونيسيا سنغافورة، وتيمور الشرقية، واقتطعت الهند من باكستان كشمير وبنغلادش، واحتلت إسرائيل فلسطين، والضفة الغربية وسيناء والجولان، واقتطعت أمريكا وإسرائيل جنوب السودان، وإقليم دارفور وآبيي يحضران على صفيح ساخن ليلقيا نفس المصير، واحتل العراق وأفغانستان، وتشر ذمت الصومال، وتنصرت أثيوبيا، وآلت إيريتيريا إلى سلطة صليبية، وقسمت البوسنة والهرسك بين الصرب والكروات . وفق اتفاق دايتون . ومن قبلها ضاعت رومانيا وبلغاريا وألبانيا وأرمينيا وأذربيجان وقبرص...ويحضر اليوم دهاقنة السياسة لتفتيت المنطقة العربية مشاريع

([1]) المذاهب الفقهية الإسلامية والتعصب المذهبي، محمد تاجا، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 3، 2010، ص 174. 175

بالغة الخطورة، مثل: الشرق الأوسط الكبير، والسوق الشرق أوسطية، وسايكس بيكو جديدة، ووعد بلفور جديد، وإسرايل الكبرى، وصدام الحضارات، وحلف الناتو، وقوات التدخل السريع، واتفاقية الغات... لقد بلغ مسامعنا من تهديدات أقطاب النظام العالمي الجديد ما تنخلع له القلوب، ورغم ذلك يستمر الاستغراق في الصغائر وسفاسف الأمور.

يقول ريتشارد نيكسون:(الرئيس الأسبق لأمريكا): " إنه بعد سقوط الشيوعية، فإن المسلمين في العالم هم العدو الجديد "[1]..ثم يضيف واصفا الإسلام بأنه" غير متحضر ودموي "[2]..

وينتهي به الحنق على الإسلام إلى هذا الوصف المنفر، حيث يقول: "إن الغرب يرى أن المتعامل مع الإسلام يشبه وضعه وضع الشخص الذي يعيش في حفرة ضيقة ومعه مجموعة من الثعابين السامة "[3]. ويرى كل من: جون مايجر، ومارغريت تاتشر، وبرنارد لويس، وصموئيل هنتنجتون، وجياني ديميكليس، وويلي كلايس، وجوديث مور، أنه بعد اختفاء الشيوعية أصبح الإسلام هو العدو الجديد.

ألا فليسمع كل مسلم هذه التصريحات الصادرة عن أقطاب النظام العالمي الجديد، وليتأمل جيدا في التهديد والوعيد، ثم ينظر إلى حال الأمة الغائبة عن الوعي...

سمع الشيخ الغزالي مناديا ينادي: ولد تائه ياأبناء الحلال، فبكى، وقال: أمة تائهة ياأبناء الحلال !!

ما أشبه الليلة بالبارحة، ففي الوقت الذي تتعرض فيه الأمة لحرب استئصالية خسيسة من طنجة إلى جاكرتا ؛ نرى صنفا من العلماء منشغلا بحرمة لحم الدجاج الذي تناول حبوب منع الحمل، وجواز أكل لحوم الجن، وحكم الخل، والكولونيا، ورضاع الكبير، وربطة العنق، وحرمة الجلوس على الكرسي الذي سبق أن جلست عليه امرأة، والساعة الحائطية، والساعة بين الساعد الأيمن والأيسر، والاستعداد للحج بإعداد الراحلة والعلف..

وبطلان العقد بين الزوجين إذا تجردا كليا من لبساهما أمام بعضهما [4]، ووجوب الطلاق على من رأى أنه طلق زوجته في المنام، وتفسير القرآن بالرؤيا والمنام [5]..وتفسير القرآن بما ينشرح له القلب [6] وإسهاب الحديث عن مواصفات العبد المعتق في الكفارات،[7]..، وحكم إهداء الزهور، وتعلم اللغة الانجليزية، وحكم التصفيق، وحكم وجود

([1]) د.محمد مورو، المواجهة بين الإسلام والغرب، الدار المصرية للنشر والإعلام، القاهرة – مصر،ط:1، 1993، ص: 20-21

([2]) نفس المرجع، ص 20

([3]) نفس المرجع، ص 25

([4]) مما يزيد القلب كمدا أن هذه الفتوى للشيخ رشاد حسن خليل أحد شيوخ الأزهر الشريف، بل هو عميد كلية الشريعة والقانون بالأزهر، ولا حول ولا قوة إلا بالله !!

([5]) والكلام لواحد من شيوخ الأزهر، وله تفسير مشهور.

([6]) الكلام لواحد من أقطاب الدعوة في مصر.

([7])""أكذوبة الدعوة إلى الإسلام " أحمد القطعاني، مجلة الأسوة الحسنة، ع 68، 2007/03/19،ص 7،

الحكم في لعبة كرة القدم [1]، وحرمة حلق شعر الرأس حتى وإن كان عاما [2]، وغديرخم، ومصحف فاطمة، وانتظار عودة الإمام المختفي، ومن هو أبو البشر، هل هو آدم المذكور في القرآن أم يوجد آدم آخر؟ [3]

وبجوارهم عشرة آلاف مسلم يذبحون ويدفنون أحياء في مجزرة سيريبرينيتسا"... وأ غلق مركز إسلامي في أمريكا بسبب تهارش المصلين حول قراءة القنوت... ومنح مسلمون أصواتهم الانتخابية لليهود والشيوعين والعلمانيين على حساب مرشحين مسلمين [4]... بل وقع اقتتال بين الإخوة بسبب خلافات تافهة، وتم تفجير المساجد والحسينيات.. يقول محمد رشيد رضا:" وقد وقع من الفتن بين المختلفين في الأصول وفي الفروع ماسود صحف التاريخ، من ذلك أن بعض الحنفية من الأفغانيين، سمع رجلا يقرأ الفاتحة وهو بجانبه في الصف فضربه بمجموع يده على صدره ضربة وقع بها على ظهره فكاد يموت. وبلغني أن بعضهم كسرسبابة مصل لرفعه إياها في التشهد، وقد بلغ من إيذاء بعض المتعصبين لبعض في طرابلس الشام..أن ذهب بعض شيوخ الشافعية إلى المفتي..وقال له قسم المساجد بيننا وبين الحنفية فإن فلانا من فقهائهم يعدنا كأهل الذمة.."[5]

وفي هذا الوقت العاصب نرى صنفا عريضا من علمائنا تناسى رساليته، فبدل أن يصلح مافسد، ويرشد ما شطط، راح يلهث وراء الدنيا، يعب منها عبا، ويشرب من لذائذها شرب الإبل العطاش، لا يفتر لسانه عن الحديث عن: العلاوات، والترقيات، والمنح، والتربصات في الخارج، والساعات الإضافية، وزيادة الأجور، والمردودية، ومنحة الإشراف والمناقشة ووحدات البحث، والمناصب الإدارية والبيداغوجية، والتغاير والتحاسد عليها، والإعارة للعمل في الخارج..

لعل هذه الفقرة التي ننقلها للدكتور أحمد الريسوني، خير ما يعبر به عن واقع جلة علماء ودعاة اليوم. يقول: بحكم اختصاص وعلاقات صديقي الذي زاربي، بعد رحلة مطولة

إلى مصر، التقى فيها بعشرات من اللعلماء المصريين: أزهريين وغيرهم " وكان مما لفت انتباه صديقي وآلمه، أن عددا غير قليل من هؤلاء العلماء مهمومون ومشغولون بدرجة كبيرة بالعلاوات والإكراميات، والبعثات، ومشغولون بهاجس البحث عن فرص ومنافذ إضافية للكسب والتمول " [6].

ثم يقول: " ومن الأضرار الناتجة عن آفة التورق والجري وراءها، أن بعض هؤلاء العلماء المتورقين يلجون كل باب يفضي إلى التورق والزيادة منه، فتتعدد وظائفهم والتزاماتهم وتتراكم، حتى لا يستطيعوا القيام بأي واحدة منها على مايرام.

([1])" فيض الخاطر من الدين إلى التراث " أحمد القطعاني، مجلة الأسوة الحسنة، ع 14، 2010/12/07، ص 7 . 9

([2]) المتفيهقون، د. محمد حسن هيتو، دار البشائر الإسلامية، ط 1، ص 45

([3]) قي خريف العمر، طلع علينا الأستاذ الفاضل عبد الصبور شاهين، بمؤلف غريب، عنوانه (أبي آدم) يطرح فيه هذه الإشكالية بحماس زائد، وكأنها من الأولويات في أمة التقى عليها العجز الداخلي والكيد الخارجي، ومزقت شر ممزق، رغم أن ماضيه كان مشرقا بالمواقف الجادة الشجاعة، والفكر الأصيل.

([4])"من أغرب ماقرات وسمعت ورأيت، صورة شيخ الأزهر وهو يطوي الصحارى نحو جنوب أفريقيا، ليدعم الحملة الانتخابية لصالح مترشح شيوعي رغم وجود مترشح مسلم.

([5]) المذاهب الفقهية الإسلامية والتعصب المذهبي، محمد تاجا، ص 166.165

([6]) أبحاث في الميدان، د. أحمد الريسوني، دار الكلمة للنسر والتوزيع، ص 119

فتجد أحدهم موظفا عموميا، ثم هو خطيب جمعة، وواعظ محلي ودولي، وهوعضو بالمجلس العلمي، أو رئيس له، أوساع لرئاسته، وتجده في بعثة الحج، ومع المعتمرين في رمصان، أو تجده في ضيافة الجالية المقيمة بالخارج، ثم هو يبحث ويقول هل من مزيد؟ "[1]

في ظل العولمة، وانتهاء الحرب الباردة، انطفأت جذوة الحروب في كل أنحاء العالم، بينما استعرت في بلاد المسلمين: غزة، والعراق، وأفغانستان، والسودان، والجزائر، والصومال، واليمن، وباكستان، والبوسنة والهرسك، ونيجيريا، ولبنان، ومالي، وكشمير، والشيشان وافترقت الأمة إلى ستين دولة، كل حزب بما لديهم فرحون، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

لقد امتدت أذرع الاختلاف في مجتمعاتنا الإسلامية – طولا وعرضا– حتى فرقت بين الوالد وولده.

والأنكى والأشد؛ أن يمتد هذا السعار إلى العلماء –عموما– والدعاة والمصلحين خصوصا. حيث ظهرت التنظيمات والتجمعات المتنازعة المتخالفة، فرزئت الدعوة بصنف من الد خلاء على العلم والفقه، لايعرفون إلا رأيا واحدا ولا يعرفون سواه، ثم يقولون: هذا هو الدين ولا دين سواه، ونكئت الساحة الإسلامية بعبارات:التفسيق، والترذيل، والتضليل، والتبديع.

كل هذه الغثائية، وهذا الانقسام، والتشرذم والتشظي؛ يلعب فيه الاختلاف المذموم دور الشرارة في اللهب.

لقد بدأنا نرى أعراض الوهن والاعتلال تلازم كثيراً ممن اعتبروا أنفسهم غرة في جبين الدعوة والإصلاح، وغالبيتهم لا تعرف إعراب جملة من القرآن، ثم يقولون عن السلف الصالح وأئمة الهدى: "هم رجال ونحن رجال!!" بمعنى، كما جاز لأولئك أن يجتهدوا، فلنا الحق أن نجتهد كما اجتهدوا.

ففي الوقت الذي تتعرض فيه الأمة الإسلامية لحرب نفسية شعواء من طنجة إلى جاكرتا؛ نرى هذا الصنف المحسوب على الدعوة منشغلاً وشاغلاً غيره بما لا طائل فيه.

أناس منشغلون بمعرفة حكم أكل لحم الدجاج الذي تناول حبوب منع الحمل!! وبجوارهم مليون ضحية من أطفال العراق يموتون موت البهائم الضالة!! وخمسة ملايين يتيم، منهم نصف مليون يتيم الوالدين، وحوالي ثلاثة ملايين لايذهبون إلى المدرسة، ومليون وعشرة آلاف أرملة... إن هذه المشاهد الداكنة، والانفصام النكد يذكرني بمشهدين مؤلمين دامعين في تاريخ أمتنا:

المشهد الأول: في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تجهز على الخلافة الإسلامية، وتستأصل جذور الدولة العثمانية بقيادة الكولونيل الجاسوس لورنس، كان صنف من العلماء يرفع عقيرته مستغيثا متضرعا " واامحمداه، واإسلاماه، واقرآناه، ضاع المسلمون، وضاع الإسلام، لقد تركواجمال محمد، وخيل محمد...وركبوا القطار، واإ سلاماه على ترك السنة المحمدية. انتظروا الساعة، لقد ترك المسلمون ماركبه موسى وعيسى والأنبياء من قبل وركبوا القطار " [2] وكانوا يطلقون على القطار "بقرة عبد الحميد " ولم يهدأ لهم بال حتى أعانوا لورنس على تخريب السكة الحديدية، التي كانت ممتدة من اسطنبول إلى

([1]) المرجع نفسه، ص123

([2]).عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر . بيروت، 1979، ص 117

الحجاز، لنقل الحجاج، والبضائع، والعساكر، ولم تطمئن نفوسهم وتهدأ حتى استخلصوا بيت المقدس من أيدي العثمانيين وسلموه للأنجليز، وفق اتفاقية سايكس بيكو، ووعد بلفورر المشؤوم، ورعاية الشريف حسين وأولاده، ألا ماأقسى وقع أحكام ومخازي التاريخ على الأخلاف !!

المشهد الثاني: في الوقت الذي كان فيه القياصرة والبلاشفة يستولون على ملايين الكيلومترات من بلاد البخاري ومسلم مستخدمين الأسلحة الحديثة، كان الخلاف التافه على أشده بين الإخوة الأعداء، وكان روادهم يصيحون" لن نقاتل إلا بسلاح قاتل به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " [1]

إنه يوم أن كان المنجل والمطرقة ينزلان على رؤوس ورقاب أحفاد البخاري ومسلم، كان كثير من علمائنا يضعون رؤوسهم ورؤوس الشعوب الإسلامية في الرمال. بل ياليتهم اكتفوا بذلك فنجد لهم المعاذير، لقد فضل كثير منهم الدخول في معارك وهمية، فهذا فتح معركة مع الصديق أبي بكر والفاروق عمر ـ رضي الله عنهما ـ وهذا فتح معركة مع معاوية ويزيد وبني أمية، وذاك أخرج رفات وجماجم سلف الأمة، وأدار وسطها معركة حامية الوطيس، وذاك تقوس ظهره لطول انكبابه على كتب التراث ليخرج علينا بتآليف الشاذ والغريب، وذاك عمد إلى مقابر المسلمين فتميزت له مقابر المعتزلة والأشاعرة والمرجئة والخوارج والجهمية، فوقف عليها يناظر أصحابها الواحد تلو الآخر فأفحمهم جميعا، بحجة بالغة ولسان مبين، بأسلوب جدلي يتصاغر أمامه الجويني والباقلاني والرازي والغزالي وابن رشد وابن حزم والشهر ستاني...

إذ ذاك كان القياصرة والبلاشفة قد انتزعوا من تحت أقدام المسلمين أكثر 21مليون كلم2 !!

إنه التاريخ يعيد نفسه، ففي الوقت الذي طور فيه الأعداء أنفسهم، وأسلحتهم، كان المماليك يقولون: "إننا نحن المسلمين ورثنا عن ديننا الحنيف ونبينا محمد صلى اله عليه وسلم. تعاليم الفروسية من سيف ورمح فلن نستخدم غيرها"[2]

يورد الشيخ الغزالي ظواهر أخرى غريبة، لا يمكن أن تكون بريئة أو وليدة صدفة، يقول: "عقب محاضرة كنت ألقيها بالشمال الأفريقي، رفع أحد الشباب يده ليسأل ما حكم الشرع في الخل؟، وبعد أيام وبينما كنت أحاضر في إحدى دول الخليج وإذا بشاب يسأل السؤال نفسه!!" [3].

والغريب أن الكاتب علّق على هذا السؤال بقوله: "وإذا كنت أسمعه الآن في غرب آسيا بعد شرق أفريقيا، فلا بد أنه مع أسئلة أسخف سوف يصدر للهند والسند وغانا" [4]، وهذا الذي حدث بالفعل، فقد سئلنا هذا السؤال في دولة من غرب أفريقيا.

ومن شمال أفريقيا وغربها وعمقها، إلى منطقة الخليج وشرق آسيا وأوربا وأمريكيا، ينتقل هذا الصنف من الناس حاملاً معه هذه البضاعة.

([1])،نفس المرجع، ص 116

([2]) نفس المرجع

([3]) انظر الحادثة بنوع من التفصيل في محمد الغزالي، هموم داعية، ص 125- 126. وانظر د. حسان حتحوت، ص 141- 142.

([4]) محمد الغزالي، **هموم داعية**، ص 126.

يقول الدكتور حسان حتحوت: بينما كنت أحاضر بأمريكا عن مؤتمر القاهرة للسكان، مبينا خطورة اللوائح المقترحة[1] على شعوب العالم الثالث عموماً، والعالم الإسلامي خصوصاً، "وفيما تهيأت للانصراف بعد المحاضرة ؛ هرول ورائي أحدهم وعلى وجهه دلائل الحيرة والاهتمام العظيم... لقد جاء يسألني لماذا ألبس رباط العنق مثل الكفار[2]؟ لقد انعقد مؤتمر السكان بالقاهرة بلد الأزهر الشريف سنة 1994 . بكل أسف . وخرج بقرارات خطيرة لتفكيك الأسرة المسلمة خاصة. ومن أخطر تلك القرارات:

. الدعوة إلى الزواج المثلي (ممارسة الشذوذ الجنسي المقنن)

. رفع سلطة الولي عن المرأة مطلقا.

. الإجهاض بدون ضوابط شرعية أو أخلاقية.

. تحرير العلاقة الجنسية، وإخراجها عن الأطر الدينية والخلقية...

كل هذا وغيره لايستثير أعصاب السائل وتستثيره ربطة العنق !! إنها مساخر الأيام، ولاحول ولا قوة إلا بالله، وإليه المشتكى.

إن هذه الحادثة وتلك تذكراني بالمنطق المقلوب الذي ظهر في تنطع الخوارج، فقبيل قليل من أفول نجم الخلافة الراشدة وبداية الملك العضوض، حدثنا التاريخ عن جماعة خرجت إلى مأرب لها، وفي أثناء السير وقعت تمرة من نخلة، فتلقفها أحدهم بفمه، وقبل أن يزدردها، صاح به صاحبه: كيف تأكلها بغير إذن صاحبها وقبل أن تدفع ثمنها.؟ فألقاها من فمه وأظهر الندم وراح يستغفر الله...، وبعد خطوات صادفوا عبدالله بن خباب وزوجه، فذبحوهما ذبح الخراف وبقروا بطن الزوجة عن جنينها[3]!! لقد توسلت الزوجة الحامل بألطف العبارات رحمة بالجنين الذي في بطنها، غير أن توسلاتها كانت صرخة في وادٍ !! لقد تملكهم الورع في تمرة، ولم يتملكهم في إزهاق أرواح الأبرياء. ومن عجب، أن هذه الفئة كانت تجير المشركين وتؤمنهم على دمائهم وأموالهم وتقتل المسلمين !!.

وشبيه بهذا المنطق منطق أهل العراق، حينما سألوا عبدالله بن عمر عن دم البعوض، فقال قولته المشهورة: "انظروا إلى أهل العراق يسألون عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . "[4].

([1]) إيجازاً لكلام يطول حول الموضوع، نقول: إن دول الشمال تريد أن تقول لدول الجنوب توقفوا عن الإنجاب والتناسل بشتى الوسائل: العزوبة وبالواقي وبالحبوب وبالإجهاض أيضاً، ليستأثر التنين بالأكل وحده، إن دول الشمال لا تشكل إلاّ 20% من عدد سكان العالم، ورغم ذلك فهي تسيطر على 80% من خيراته!، ولا ندري السقف الذي تريد أن ترتفع إليه هذه القسمة الجائرة!!، (الإسلام حضارة الغد، د. يوسف القرضاوي، ص 108).

([2]) د. حسان حتحوت، **بهذا ألقى الله**، ص 140.

([3]) خالد محمد خالد، **في رحاب علي**، ص 177- 178.

([4]) ابن حجر، **فتح الباري**، ج 9، ص 39.

إنه الحصاد المر، مما بذرت أيدينا وروت سواقينا، ولم نتعهده بالرعاية الكاملة، بل تركناه لبهائم الليل ترتع أنى شاء ت، وأسلمناه للأيادي الآثمة تميل به ذات اليمين وذات الشمال، لقد سمعنا الآثمين وهم يستولون على الحرث والنسل يقولون: هذه قطعان ذهب رُعاتها، ومراتع هلك أصحابها، وصبيان غرلاعائل لهم ولا كفيل.

يقول طه جابر العلواني، معلقاً على الأمل المنكسر والرجاء الخائب: وإذا بكثير من الجهود تتفتت على هذه الصخرة المقيتة، فبدأنا نرى شباباً ينتسبون إلى المذهبية، وآخرين يدعون اللامذهبية، وبين هؤلاء وأولئك تتبادل الاتهامات المختلفة من التفسيق والنسبة إلى البدعة والانحراف، والعمالة والجاسوسية، ونحو ذلك مما لا يليق بمسلم أن ينسب أخاه إليه بحال من الأحوال [1].

ليست المشكلة في الانتساب إلى زيد أو عمرو من الناس، وليست المشكلة في أن يختلف الأفراد أو الجماعات فيما بينهم، إنما المشكلة فيما يترتب على هذا الخلاف أو ذاك.

أليس عاراً أن تقوم السلطات الأمريكية بإغلاق مسجد بسبب تهارش المصلين حول قراءة القنوت في صلاة الصبح!! [2]، رحم الله الشافعي، وجيل الشافعي...لقد صلى الصبح قريبا من مقبرة أبي حنيفة ولم يقنت تأدبا معه [3]

ورحم الله أحمد بن حنبل، لقد سئل هل يصلي خلف من خرج منه الدم ولم يتوضأ؟ فقال كيف لا أصلي خلف الإمام مالك وسعيد ابن المسيب [4].

ولله در الشافعي وهو يقول:"..ما كلمت أحدا قط وأنا أبالي أن يظهر ا الحق على لسانه أو لساني " [5].

" ما ناظرت أحدا إلا على النصيحة، وما ناظرت أحدا فأحببت أن يخطئ " [6].

لله دركم يا رجال الله...

أليس عاراً أن يدخل في الإسلام صديقان إيطاليان لتتحول صداقتهما بعد ذلك إلى عداوة ولا يكلم أحدهما الآخر، لأن كلا منهما انضم إلى جماعة، أليس من العار أن يمنح المسلمون في بريطانيا أصواتهم لليهود رغم وجود مترشحين مسلمين بسبب خلافات ساذجة لا تضر دينا ولا تنفع دنيا؟.

أهذه هي الموضوعات الأليق بالنقاش والمطارحات الفكرية في ظل العولمة، والتكتلات الاقتصادية والسياسية والغطرسة الصهيونية؟، إنه لمن دواعي الحسرة والأسى حال أمة كانت تقود البشرية في أبهى عصورها الذهبية، ثم حافت عليها الليالي فهوت على رأسها من قمة الهرم، تتخبط في الوحل في ذيل مؤخرة الدول المختلفة، وأبناؤها منشغلون بالترف الثقافي، مولعون بصغائر الأمور وسفاسفها، ذاهلون عما تتعرض له أمتهم من محاولات استئصال.

([1]) د. طه جابر العلواني، **أدب الاختلاف في الإسلام**، ص 151.

([2]) محمد الغزالي، **الإسلام خارج أرضه كيف نفكر فيه؟** ص 203.

([3])"حجة الله البالغة، ولي الله الدهلي، ج1، ص296

([4])"الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، ولي الله الدهلوي، ص 164،165

[5]) علم الدذل في علم الجدل، نجم الدين الطوفي، دار النشر فراتزشتاينز، فيسيان، 1987، ص 14"

([6])،"مناقب الإمام الشافعي، فخر الدين الرازي، ص 313

لقد بحت أصوات المسلمات الحرائر في البوسنة والهرسك والقوقاز وهن يطالبن المسلمين بتزويدهن بحبوب منع الحمل حتى لا يحملن . سفاحا . من العلوج الملا حدة، وكانت أصواتهن رجع صدى لأننا منشغلون بسفا سف الأمور، إن سلوى أولئك الحرائر هي قول الشاعر: قد أسمعت لو ناديت حيا لكن لا حياة لمن تنادي

وقول الآخر:

رب وامعتصماه قد انطلقت من أفواه البنات اليتم

ّ ًقد لامست أسماعهم لكنها لم تلامس نخوة المعتصم

إن أي امرئ يشغل المسلمين عن واجباتهم الرسالية، إما امعة يمالئ العدو ويعينه على هزيمتنا، وإما أحمق يمثل دور الصديق الجاهل، ويخذل أمته من حيث لا يدري، وكلا الشخصين ينبغي الحذر منه والتنبيه عليه[1].

إنها النفوس إذا انطمست بصيرتها، وتجردت من الهمم الجليلة، قعدت عن المطامح النبيلة...، وإذّاك ينشب التناطح على القشة والقذاة، قال الشاعر:

على قدر أهل العلم تأتي العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

حينما يرى الإنسان عاملين في الدعوة بلغوا مرحلة الشيخوخة، وملأوا الدنيا بالكتابات في مثل هذه الموضوعات، ولا يجد حرفاً واحدا عن الصهيونية والشيوعية والصليبية والاستعمار والعولمة والتبشير والشورى والسياسة الشرعية والاقتصاد والتنمية والقضايا المصيرية للأمة... لا يملك إلاّ أن يضع يده على قلبه ويسأل الله اللطف فيما ستجري به المقادير.

"إن إثارة الخلاف بين المسلمين أو تنمية أسبابه خيانة عظمى لأهداف الإسلام، وتعويق لمسيرة الإسلام، وتشتيت لجهود العاملين المخلصين"[2].

لا أشك في أن تكون لهذه النماذج والأمثلة روافد من عصور الانحطاط، ولكن من جهة أخرى لا أستبعد رائحة المكيدة المحبوكة من طرف قوى الاستكبار العالمي، لينشغل الشباب المسلم عن هموم أمتهم وأوطانهم، وليبددوا وقتهم وجهدهم فيما لا طائل من ورائه، وليكون بأسهم شديدا بينهم، في الوقت الذي تمر فيه أمتنا بظروف لا تحسد عليها، ولعل المثال الذي سأشير إليه خير دليل على صدق ما أقول، إ ذ لايمكن بحال من الأحوال أن يكون بريئا..... حيث تمكنت جماعة من المسلمين بطريقتها الخاصة في استحضار الأرواح من الاطلاع على ما في جهنم بعد الاتصال بعزرائيل وطلب الإذن منه!! فكان المشهد على النحو الآتي: صور لينين وستالين وهتلر يصطلون في درك جهنم، ثم يأتي في الدرك الأسفل منه إبليس، ثم شيخ الجماعة المعادية لتنظيمهم وجماعتهم في الدرك الأسفل من النار!، يقول صاحب الكتاب: يوم أن مات فلان سقط حجر أسود من جهنم على قبره، وقد كتب عليه اليوم مات مرمّل النساء وميتّم الأطفال، وسمع كل الناس صوتاً هائلاً..! هل هذه هي العقلية التي تجدد الدين وتنهض بالدنيا!!؟

([1]) محمد الغزالي، **هموم داعية**، ص 44.

([2]) د. طه جابر العلواني، **أدب الاختلاف في الإسلام**، ص 151.

لهفي على المسلمين الذين ضاقت دنياهم بالخلاف فراحوا يلاحق بعضهم بعضاً في دركات جهنم، تاركين وراءهم جنة عرضها السموات والأرض!! ذاهلين عن هزائم الأمة الشائنة في المجال الاقتصادي، والعلمي، والسياسي !!

" وامتلأت قلوبنا بالأحقاد، حتى صار الواحد منايحمل من الحقد على الآخرين من أبناء دينه وعقيدته مالا يحمله على أعداء أمته، من اليهود والصليبيين، لخلاف فكري أو اتجاه حزبي، أو...وصرنا بدلامن أن نلقن الناس مبادئ الحق التي سمونا وسنسموا بها، صرنا نلقنهم كيف يحترسون من زيد، ويحقدون على عمرو، ويتجنبون فلانا " [1].

ونختم الحديث عن الغلو والاختلاف بهذه العبارات المشخصة للشيخ محمد الغزالي: "والصغار دائماً يهتمون بالصغائر، فإذا رأيت من يهتم اهتماماً هائلاً بقبض اليدين في الصلاة أهو فوق السُّرة أم على الصدر؟ ويستثير ذلك أعصابه أكثر مما يستثيره قتل عشرة آلاف مسلم في تشاد[*]، فاعلم أنك أمام مسخ من الخلْق، لا يُؤمَن على دين الله ولا دنيا الناس، وهذا النفر من المتدينين عبء على الأرض والسماء، والأمة التي تسلم زمامها إلى الإنسان المخبول إنما تسلمه لجزار، ودين الله أشرف من أن يتحدث فيه هؤلاء الحمقى" [2].

ألاّ ما أصدق قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "إيّاكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين" [3].

الحصاد المر

لا أشك لحظة واحدة في أن الاختلاف المذموم حول القضايا الفرعية، وما يترتب عليه هو العامل الرئيسي الذي كان وراء انهيار الأمم والممالك الإسلامية، الواحدة تلو الأخرى، واليوم يؤدي نفس الدور في التخلف الحضاري للأمة، فقد صارت الأمة الواحدة ستين دولة، داخل حدود جغرافية، رسمها الاستعمار، على شكل قنابل موقوتة، يتحكم في تفجيرها عن بعد... تفجرها من الداخل مئات القوميات التي كانت بالأمس تحمل لواء الدعوة والفتوح الإسلامية، تنخرها ألوان شتى من الإيديولوجيت،،

حتى أبناء الصحوة الإسلامية ـ بلا استثناء ـ وأنصار المشروع الإسلامي، متدابرون كل يغني ليلاه، يتقاذفون بمارج من عبارات التفسيق والترذيل،،ويتبادلون السباب والتهم،

والنتيجة، أمة بائسة تزحف على بطنها في ذيل قافلة الركب الحضاري، تطمع فقط ـ في الوقت الحالي ـ في الانتقال إلى مرحلة الحبو وسط العماليق، في شتى النواحي:السياسية والاقتصادية، والعسكرية، والعلمية....

ولعل لغة الأرقام اليوم تغني عن أسفار من الديباجة اللغوية، وبهرج البيان والفصاحة، وفي المحصلة لا أجد ما أعبر به حيالها إلا قول أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس:

([1]) المتفيهقون، د. محمد حسين هيتو، ص 19

([*]) كان ذلك أيام الاحتلال الفرنسي لتشاد.

([2]) محمد الغزالي، **هموم داعية**، ص 154.

([3]) سنن النسائي، كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى رقم 3070م. سنن ابن ماجة، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي 3029.

لمثل هذا يموت القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

فليتأمل كل مسلم هذه الأرقام، والمشاهد الناطقة بالأسى والحسرة:

. الناتج القومي للدول العربة مجتمعة لايساوي الناتج القومي لآخر دولة في السوق الأوربية المشتركة، وهي إسبانيا، بل لايساوي ماتنجه دولة مجهرية في أوربا، وهي فنلندا. علما أن سبعين بالمائة من الناتج القومي العربي يأتي من النفط !!

. من عهد المأمون إلى يومنا هذا، ترجم إلى اللغة العربة 100 ألف كتاب، وإسبانيا وحدها تترجم إلى اللغة الإسبانية سنويا 100ألف كتاب [1]!!

. تنفق جامعة كاليفورنيا وحدها . سنويا . على البحث العلمي ستة أضعاف ماتنفقه كل الجامعات العربية (حوالي 400جامعة) أي أن 2400جامعة عربية لا تساوي جامعة أمريكية واحدة، وهي جامعة كاليفورنيا !!

. تنفق إسرائيل على البحث العلمي 4،7 في المائة من الناتج القومي، أي 9،87 مليار دولار، بينما ينفق العرب 0،2 في المائة، وهذا معناه أن إسرائيل تنفق على البحث العلمي تسعة أضعاف ماتنفقه الدول العربية مجتمعة!!

. لإسرائيل 1260 براءة اختراع سنويا، وهذا الرقم يفوق كل براءات الاختراع العربية منذ أيام المأمون (800 براءة اختراع) !!

. نسبة القراءة الفردية في إسرائيل 40 كتابا للفرد سنويا، مقابل ربع صفحة للعربي !!

. حسب منظمة اليونيسكو، فإن نسبة قراءة الفرد العربي 06 دقائق في السنة، مقابل 12ألف دقيقة للغرب!![2].

. رأسمال شركة أل جي الكورية الشمالية يساوي الناتج القومي للدول المغاربية مجتمعة!!

. أما الجانب السياسي فسوف أختار له عناصر موجزة تعلق بنفسها على نفسها، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر:

. صورة مسلم يقاتل إلى جانب الشيوعيين الروس ضد إخوانه في أفغانستان !!.

. مسلمون يدعمون الشيوعيين الصرب ضد إخوانهم في البوسنة والهرسك !!.

. مسلمون يدعمون جون غارينغ . الصليبي الحاقد . ليستقل بجنوب السودان !!.

. مسلمون يدعمون انفصال دارفور عن السودان !!.

. زعيم حزب إسلامي سوداني يرى مشروعية تقسيم السودان إلى ثماني دول. !!

. مسلمون يتمنون اندحار حركة حماس الفلسطينية أمام إسرائيل سنة 2008!!

. مسلمون ينسقون عسكريا مع إسرائيل!!

إن لله سننا لاتحابي أبدا، إنها كالظواهر الطبيعية، شروق يعقبه الغروب، وبرق يتلوه رعد، ومد يتبعه جزر، وخريف يتلوه شتاء وشتاء يتلوه ربيع...الأسباب والمسببات الواحدة تعطي نتائج واحدة، مثلا بمثل، مثلما تتبخر كل المياه عند درجة حرارة مائة، ومثلما تتمدد كل المعادن بالحرارة، الظاهرة الواحة في تاريخ الأمة أعطتنا نفس النتائج.

([1]) فاروق الباز، قناة الجزيرة، بتاريخ 2006/04/28

([2]) ملحق مجلة العربي، ع: 642 ماي 2012، ص 05

إن المشاهد السابقة هي صورة طبق الأصل لعبد الله الصغير . آخر ملوم بني الاحمر . الذ ي بلغت به الخسة إلى درجة أنه لما سقطت مدينة مالقة وتحول مسجدها الأعظم إلى كنيسة أرسل يهنئ فرديناند بذلك، لا لشئ سوى أنها كانت معقلا لعمه ومنافسه أبي عبد الله الزغل [1]!!

. وصورة طبق الأصل للصالح إسماعيل أيوب حاكم الشام في عهد السلاجقة، حيث خان، وتحالف مع الصليبيين، وتنازل لهم عن بعص الحصون، وسجن سلطان العلماء العز بن عبد السلام . تزلفا . !!

وصورة طبق الأصل لابن العلقمي، والصالح أيوب، اللذين تحالفا مع هولاكو!!..

.وهناك مئات الصور لايتسع المقام للإشارة إليها.

أسباب العلة وعلاجها:

لاشك أن الورم الخبيث، تطاولت عليه الأيام والسنون فزادته تورما وخبثا، فأصبح قاتلا ماحقا، أسهمت في عنفوانه عوامل داخلية وأخرى خارجية، التقتا عليه عند نقطة الجمود والتخلف الحضاري... وتعميق توصيفها حديث ذو شجون، قد يتطلب بضعة أسفار، بيد أنه لمقتضى الحال، نوجز هذه الأسباب على عجل على النحو الآتي:

1. الاستعمار الغربي: الذي استولى على المنطقة العربية والإسلامية استيلاءً استيطانياً، حاملا معه شعار "فرق تسد "

سيطر فيه سيطرة مطلقة على الناحية السياسية، والاقتصادية، والثقافية... فنتج عن ذلك تأخر المنطقة برمتها، فظهر الفقر، وفشا الجهل، وعمّت الأمية، إلى درجة أنه قد لا يجد الإنسان في مدينته أو قريته من لا يحسن قراءة وكتابة الرسالة !! وكما يقول المثل العربي " يكفيك من شرسماعه " فلما جاء الاستقلال كانت جميع العلوم يتيمة، ومنها العلوم الشرعية، ومن الطبيعي جداً أن يظهر على الساحة االعلمية والفكرية، أشباه المتفقهين والمتعالمين، ومن الطبيعي جداً أن يظهرالخلاف المذموم في أبشع صوره، إذ إن فاقد الشيء لا يعطيه، ولن يستقيم الظل والعود أعوج، وسنحتاج إلى وقت طويل لتدارك ما فات.

2- قلّة المؤسسات التي تعنى بالتأطير الشرعي: على مستوى العالم الإسلامي نجد كثيراً من دوله لا تعنى العناية اللازمة بالمؤسسات الدينية، مما تسبب في ظهور متطفلين على الدعوة والإصلاح، اكتفت من الدين باسمه، ومن الإصلاح برسمه، ومن البدهي أنه في غياب الطب الشرعي، تظهر الشعوذة والدجل، ولن تحل المشكلة إلا بعودة هذه المؤسسات إلى سالف عزها وسابق مجدها.

3 . الموروث الحضاري:

لاشك أن بعض المتنطعين الجدد، المولعين بالخلاف الفرعي، نبشوا عن بضاعتهم في التراث الحضاري للأمة فوجدوا أصنافا معتبرة من ألوان الخلاف المذموم، فجعلوها رافدا زاخرا، وتكأة شرعية يبررون بها ماهم عليه، وقد سبقت الإشارة إلى بعض الأمثلة على ذلك.

4. الأمراض النفسية كالكِبر، والغيرة والحسد، والعجب، والرّياء.

([1]) عوامل النصر والهزيمة في تاريخنا الإسلامي، د. شوقي أبو خليل، ص108

5 . عدم الإخلاص: للدعوة والدين والمبدأ، فكثير من الدعاة لا هم لهم من الدعوة سوى أن يتوسلوها لنيل مآرب ومصالح دنيوية في عباءة الدعوة، وهؤلاء هم الذين سماهم فتحي يكن المتساقطين على طريق الدعوة، وهم الذين تحملهم الدعوة، يدل أن يحملوها هم.

يقول الشيخ الغزالي: ((إننا نلحظ آسفين أن ميدان الدعوة إلى الله غص بأقوام يجعلون وجه الله آخر ما يراعى ويرغب إن كان الأمر لا يعدو أن يكون حرفة تدر ربحاً ربما قليلاً أو كثيراً، وكأن الحرص لا يهيج إلاّ استدامة هذا الربح...)) [1].

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي: "كثيراً ما يكون ظاهر الخلافات مسائل العلم والفكر، وباطنها حب الذات واتباع الهوى الذي يُعمى ويُصم ويُضل عن سبيل الله، وهذا ما لمسته للأسف الشديد في كثير من ألوان الخلاف التي وقعت وما تزال تقع، فكثير منها يرجع إلى أمور شخصية وتطلعات ذاتية، وإن كانت تغلف بالحرص على مصلحة الإسلام، ويظن أتباع هذا أو ذاك أنه خلاف على المبادئ والمفاهيم، وهو خلاف على المغانم وحب الظهور أو الجاه أو التصدر" [2].

أما العلاج المقترح للخلاف المذموم وما يحيط به عموما، فيأتي على رأسه الحل الإسلامي، بالمعنى الدقيق والشامل للكلمة، وعودة المؤسسات الدينية وإعادة الاعتبارإليها، وإعادة التعليم الأصلي إلى المنظومة التربوية برمتها، وإحياء آداب الاختلاف والحوار . قرآنا وسنة وسلفا صالحا . وإدراج أدب الاختلاف ضمن المواد المقررة على تلاميذ وطلاب الجامعات، والتصدي لمخططات العدو الخارجي، الذي يعمل وفق مبدئه المشهور " فرق تسد "

هذا بالإضافة إلى تلك القواعد الذهبية التي أشار اليها الدكتور يوسف القرضاوي، تلك القواعد. التي لا أرى أفضل ولا أحسن منها في موضوع الاختلاف، وما يدور حوله، وهي:

1. لا بد أن تنتقل دائرة الاهتمام والتركيز من الفروع والجزئيات إلى الأصول والكليات.
2. من النوافل إلى الفرائض.
3. من المختلف فيه إلى المتفق عليه.
4. من أعمال الجوارح إلى أعمال القلوب.
5. من طرفي الغلو والتفريط إلى الوسطية والاعتدال.
6. من التعسير والتنفير إلى التيسير والتبشير.
7. من الجمود والتقليد إلى الاجتهاد والتجديد.
8. من الكلام والجدل إلى العطاء والتجديد.
9. من العاطفة والارتجال إلى العملية والتخطيط.
10. من التعصب على المخالفين في الرأي إلى التسامح معهم.

([1]) د. محمد الغزالي، **مع الله**، دار نهضة مصر، ط:2، 2000، ص: 161- 162.

([2]) د. يوسف القرضاوي، **الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم**، ص 192- 193.

11. من الإثارة إلى التفقيه (أو من أسلوب الوعاظ) إلى أسلوب الفقهاء، أو من حماس المنبر إلى هدوء الحلقة.
12. من الكم إلى الكيف...
13. من سماء الأحلام إلى أرض الواقع.
14. من الاستعلاء على المجتمع إلى المعايشة له.
15. من الانكفاء على الماضي إلى معايشة الحاضر، والإعداد للمستقبل.
16. من الاستغراق في العمل السياسي إلى الاهتمام بالعمل الاجتماعي.
17. من اختلاف التضاد والتشاحن إلى اختلاف التنوع والتعاون.
18. من إهمال شؤون الحياة إلى التعبد بإتقانها.
19. من الإقليمية الضيقة إلى العالمية الواسعة.
20 . من الإعجاب بالنفس إلى محاسبة النفس (أو من الغلو في إثبات الذات إلى نقد الذات) [1].

([1]) د. يوسف القرضاوي، **أين الخلل؟** ص 83- 85.